تفسير كلّ آية بجملة

﴿٢١١﴾ سل بني إسرائيل كم سُقنا إليهم الأدلّة القاطعة على صدق الرّسول، وفي ذلك نعمة هدايتهم إلى الله، فكفروا بهذه الأدلّة، وعمدوا بتكذيبهم لها إلى تبديل الغرض منها، فبعد أن كانت هذه الآيات للهداية أصبحت بالنّسبة لكفر هؤلاء بها سببًا في زيادة ضلالهم وإثمهم، ومن يبدّل نعم الله بهذه الصّورة يحقّ عليه العذاب لأنّ الله شديد العقاب.

﴿٢١٢﴾ وإنّ السّبب في الانحراف والكفر هو طلب الدّنيا، فقد زُيّن للذين كفروا شهوات الحياة الدّنيا فمضوا يسخرون من الذين آمنوا لانشغالهم بالحياة الآخرة، والله جاعل الذين آمنوا أعلى مكانًا منهم في الآخرة. فأمّا توفّر المال وزينة الحياة الدّنيا لدى الكفّار فلا تدلّ على أفضليّتهم، لأنّ رزق الله لا يُقدَّر على حساب الإيمان والكفر بل يجرى تبعًا لمشيئته، فمن النّاس من يُزاد له في الرّزق استدراجًا ومنهم من يقتّر عليه اختبارًا.

﴿٢١٣﴾ إنَّ النّاس طبيعة واحدة منهم من عنده الاستعداد للضّلالة، ومنهم من تستولي عليه أسباب الهداية، ومنهم من تغلب عليه الضّلالة، ولذلك اختلفوا، فبعث الله إليهم الأنبياء هداة ومبشّرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتب مشتملة على الحقّ، لتكون هي الحكم بين النّاس فينقطع التّنازع، ولكن الذين انتفعوا بهدى النّبيّين هم الذين آمنوا فقط، والذين هداهم الله في موضع الاختلاف إلى الحقّ، والله هو الذي يوفّق أهل الحقّ إذا أخلصوا.

﴿٢١٤﴾ فهل حسبتم أن تدخلوا الجنّة بمجرد إقراركم بكلمة الإسلام بدون أن تصابوا بمثل ما أصاب الذين من قبلكم، فقد أصابتهم الشّدائد والنّوازل وزلزلوا حتّى بلغ بهم الأمر أن قال رسولهم نفسه وقالوا معه: متى نصر الله؟ استبطاء له، فَيبرُّ ربّهم بوعده فيجابون عندئذٍ بأنّ نصر الله قريب.

﴿٢١٥﴾ يسألك المؤمنون في شأن الإنفاق فقل لهم يا محمّد: إنّ الإنفاق يكون من المال الطيّب، ويُعطَى للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين ومن انقطع عن ماله وأهله، وما تفعلوا من عمل خير فإنّ الله يعلمه وهو يثيبكم عليه.

الآيتان ٢١٣-٢١٤

حاجة النّاس للرّسل والحكمة ممّا يلاقونه من بلاء

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

سبب نزول الآية (٢١٤): قال قتادة والسُّدِّي: "نزلت هذه الآية في غزوة الخندق، حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدّة والحرّ والخوف والبرد وضيق العيش وأنواع الأذى، وكان كما قال الله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾[1].

وقال عطاء: لمّا دخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، اشتدّ الضرّ عليهم، بأنّهم خرجوا بلا مال، وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ﷺ، وأسرّ قوم من الأغنياء النّفاق، فأنزل الله تعالى تطييبًا لقلوبهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾[2]

المناسبة: أمر الله تعالى المؤمنين في الآية السّابقة أن يدخلوا في السّلم كافّة فيأخذوا الإسلام بجملته، دون تجزئة أو خلط بينه وبين غيره، وأظهر في هاتين الآيتين مدى الحاجة إلى الرّسل، وأنّ الاهتداء بهديهم ضروريّ للبشر، وأنّ من آمن بدعوة الأنبياء قد يتعرّض للمحنة والشدّة والبلاء، فعليه بالصّبر حتّى يأذن الله بالفرج أو النّصر، وإنّما إصرار هؤلاء على كفرهم بسبب حبّ الدّنيا.

المعنى العام

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

يقول الحقّ جلّ جلاله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كان النّاس في زمن آدم عليه السلام وما قرب منه جماعة واحدة، متّفقة على التّوحيد والطّاعة، فاختلفوا، فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: "كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشَرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ"[3]. ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ﴾ لأهل التّوحيد والطّاعة بالنّعيم المقيم، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ مخوّفين لأهل الكفر والعصيان بالعذاب الأليم، من بعد ما قامت الحجج عليهم، ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي جنس الكتاب، فيشمل الكتب السّماويّة كلّها، متلبّسًا ذلك الكتاب بالحقّ ودالًّا عليه، ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.
(٢) ذكره الواحديّ في أسباب نزول القرآن، عن قتادة والسديّ وعطاء، ج١، ص٦٨.
(٣) رواه الحاكم في المستدرك، عن ابن عبّاس، حديث رقم: ٤٠٠٩، كتاب: تواريخ المتقدّمين من الأنبياء والمرسلين، باب: ذكر نوح النّبيّ ﷺ اختلفوا.. الحديث صحيح.

﴿النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ ليحكم الحقّ تعالى على لسان الرّسل بين النّاس، في الأمر الذي اختلفوا فيه من أمر التّوحيد وغيره. ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي في الكتاب المنزّل ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ حسدًا أو كبرًا. فاليهود آمنوا بالتّوراة وكفروا بالإنجيل، والنّصارى آمنوا بالإنجيل وكفروا بالتّوراة، ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الآيات الواضحات في صحّة ذلك الكتاب الذي كفروا به، والأمر بالإيمان به، ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ فالله تعالى أنزل العلم ليجمعهم ويؤلّف بينهم على طاعته، فأمرهم أن يتآلفوا بالعلم، فتحاسدوا، واختلفوا طلبًا للرّئاسة والجاه، وبغى بعضهم على بعض. ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بسيّدنا محمّد ﷺ ﴿لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾ للأمر الذي اختلف فيه أهل الكتاب، وهو الحقّ الذي جاءت به الرّسل، فآمنوا بالجميع، وتآلفوا على طاعة الله ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بعلمه بهم وبإرادته بما هداهم له. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَاخْتَلَفُوا، فَهَدَانَا اللهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، هَدَانَا اللهُ لَهُ- قَالَ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ- فَالْيَوْمَ لَنَا، وَغَدًا لِلْيَهُودِ، وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى»[1] وكان أبو العالية يقول في هذه الآية: هي المخرج من الشّبهات والضّلالات والفتن، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ من خلقه ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ويضلّ من يشاء عن طريقه القويم، لا يُسئل عمّا يفعل وهم يُسألون، وله الحكمة والحجّة البالغة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾

يقول الحقّ ﷻ للرّسول ﷺ والمؤمنين، تسليةً لهم وتشجيعًا لقلوبهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ قبل أن تُبْتَلوا وتُختبروا وتُمتحنوا ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ ولمّا تُصبكم سنّة ما أصاب مَن قبلكم من الأنبياء وأممهم، فقد ﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ﴾ في أموالهم بالغصب والنّهب والموت، ﴿وَالضَّرَّاءُ﴾ في أبدانهم بالقتل و الحرب والمرض وأنواع البلاء، ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ زلزالًا عظيمًا وضُربوا بالمحن والشّدائد، وطال عليهم البلاء، وتأخر عنهم النّصر، ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ حتّى أفضى بهم الحال إلى أن قالوا: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ يستفتحون على أعدائهم، متى يأتينا نصر الله؟ استبطاءً لمجيئه مع شدّة البلاء. فيُجيبهم الحقّ ﷻ بشارة لهم: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ فلا تستعجلوا، واصبروا إنّ الله مع الصابرين والعاقبة للمتّقين، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[2] فكما تكون الشدّة ينزل من اليسر مثلها، وقد حصل من هذا جانب عظيم للصّحابة رضي الله عنهم في يوم الأحزاب، كما قال تعالى: ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[3]، ولما سأل هرقل أبا سفيان: " سَأَلْتُكَ كَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟، فَزَعَمْتَ «أَنَّ الحَرْبَ سِجَالٌ وَدُوَلٌ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَةُ»". [4]

ولقد مضت سُنَّة الله سبحانه مع الأولياء، أنّهم لا يُنيخُونَ بعقوة الظفر- حوله وقريبًا منه- إلا بعد إشرافهم على عرصات اليأس، فحين طال بهم التّرقُّبُ صَادَفَهم اللّطفُ بغتةً وتحقّق لهم المُبْتَغَى فجأة، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

(١) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٨٥٥، كتاب: الجمعة، باب: هداية هذه الأمّة ليوم الجمعة.
(٢) سورة الشرح، الآيتان: ٥ - ٦.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.
(٤) رواه البخاريّ في صحيحه، عن ابن عبّاس، حديث رقم: ٢٨٠٤، كتاب: الجهاد والسير، باب: قول الله ﷻ: ﴿هل تربّصونَ بِنَا...﴾.

لطائف الإشارات للسّلوك والتّزكية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيات:

١. الأصل هو التّوحيد، والشّرك طارئ على البشريّة. فأوّل إنسان هو نبيّ ورسول علّمه ربّ العالمين ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[١] وهو بدوره علّم البشريّة وهداها.

٢. عن أبي هريرة ﷺ، قال: قالَ النّبيّ ﷺ: "«مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ» ثمّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[٢]"[٣] وهي فطرة التّوحيد.

٣. الأصل في مهمّة الرّسل البشارة لمن آمن واتّقى، البشارة بسعادة الدّنيا والآخرة، والنّذارة لمن كفر وفجر، النّذارة بشقاوة الدّنيا والآخرة.

٤. المدرسة الأبويّة: هي مدرسة الأنبياء ومن اتّبعهم، وهم يحتكمون إلى الشّرع والعقل. والمدرسة الأنويّة ويترأسها إبليس وأعوانه، من الدّجال وقابيل ومن اتّبعهم، وهم يحتكمون إلى الأنا والأهواء.

٥. من علامات خذلان الأمّة وتعرّضها للخسارة والدّمار، أن تختلف في كتابها ودينها، فيحرّفون كلام الله (أي يحرّفون معنى الآيات) ويبدّلون شرائعه طلبًا للرّئاسة وجريًا وراء الأهواء والعصبيّات، وهذا الذي تعاني منه أمّة الإسلام اليوم وقبل اليوم، وكان السّبب في دمار بني إسرائيل لتحريفهم معاني التّوراة، ثمّ تطوّر الأمر إلى تحريف الكلمات والآيات.

٦. أمّة الإسلام التي تعيش على الكتاب والسنّة، عقيدة وأخلاقًا وعبادة وقضاء، هي المعنيّة بقوله تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾. والحقّ هو الدّين بأركانه الثلاثة: الشّريعة والعقيدة والأخلاق.

٧. اليهود ركّزوا على الشّريعة وأهملوا العقيدة والأخلاق والرّوحانيّات، والنّصارى ركّزوا على الأخلاق والرّوحانيّات وأهملوا العقيدة والشّريعة، والمسلمون يتّبعون أركان الدّين الصحيح، من شريعة وعقيدة وأخلاق وروحانيّات.

٨. الهداية بيد الله، فليطلب العبد دائمًا الهداية منه سبحانه بسؤاله المتكرّر أن يهديه دائمًا إلى الحقّ. فعلينا أن ندعو الله تعالى من أعماق قلوبنا في كلّ ركعة من ركعات الصّلاة: اهدنا الصّراط المستقيم، وندعو في كلّ يوم دعاء القنوت: اللهمّ اهدنا فيمن هديت...

حاجة النّاس إلى كتب سماويّة:

كتاب الله هو الحاكم بين النّاس فيما يختلفون فيه، لأنّه كلام الله، والله هو الحاكم ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[٤]. وفيه الإشارة إلى حاجة كلّ أمّة إلى كتاب سماويّ يحكم بينهم فيما يختلفون فيه، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ

(١) سورة البقرة، الآية: ٣١. (٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٣) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١٣٥٩، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبيّ فمات، هل يصلّى عليه.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.

النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾[1].

كيف يكون الاعتقاد بكتب الله تعالى؟

نعتقد أنّ الله تعالى أنزل كتبًا على أنبيائه ورسله، وبيّنَ فيها أوامرهُ ونواهيهِ، ووَعدَهِ ووَعيدَه، والعقيدة والأخلاق. وبَيَّن فيها السبلَ إلى السّعادةِ والهداية، والفوزِ العظيم. وكُتبُ الله ﷻ، هي كلامُه الذي أنزلهُ على أنبيائِه ورسلِه، وحيًا، بواسطة سيّدنا جبرائيل عليه السلام، وكلامه ﷻ بلا حرف ولا صوت ولا لغة، وهو المعنى القائم وراء آيات القرآن.

ونحن نؤمن بهذه الكتبِ جميعًا، ما نعلمُه مِنها، وما لا نعلمُه. فالكتبُ التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه كثيرةٌ، لا نعلمُ عددَها يقينًا، فنؤمنُ بجميعِ الكتبِ المنزّلة إجمالًا، ونؤمنُ بما ذكر اسمهُ في القرآنِ الكريم تفصيلًا.

والكتب التي ذُكرتْ أسماؤُها في القرآن الكريم أربعة، وهي: التّوراة، الزّبور، الإنجيل والقرآن الكريم. ونؤمنُ أيضًا بصحفِ إبراهيمَ وموسى، التي ذكرها القرآن.

- ونحن نعتقد بالتّوراةِ الصّحيحةِ التي أنزلها الله تعالى على سيّدنا موسى عليه السلام، لذِكْرِها في القرآن الكريم وذكر بعضُ ما جاء فيها، من عقائدَ وأحكامٍ شرعيّة لبني إسرائيل. ولا نعتقدُ ولا نصدّقُ بما جاءَ في التّوراة الموجودة حاليًّا، لأنّه قد لحِقها الكثيرُ من التّحريفِ على يدِ اليَهودِ، الذينَ كفروا بسيّدنا موسى عليه السلام.
- ونعتقدُ بالزّبورِ، الذي أنزلهُ الله تعالى على سيّدنا داودَ عليه السلام، وهو عبارةٌ عن أدعيةٍ وأذكار ومواعظَ، وليسَ فيه أحكامٌ شرعيّة، لأنّ سيّدنا داود عليه السلام كان مأمورًا باتّباعِ شريعةِ سيّدنا موسى عليه السلام.
- ونعتقدُ بالإنجيلِ الصّحيح، الذي أنزله الله تعالى على سيّدنا عيسى عليه السلام، مُصَحِّحًا فيه التّحريفَ الذي لحِقَ بالتّوراةِ، وناسِخًا لبعضِ أحكامِهِ، ومُبشّرًا بظهورِ خاتَمِ الأنبياءِ والمُرسلينَ، سيّدنا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[2]. ونحن لا نعتقدُ، ولا نصدّقُ بالأناجيل، المعتمدة حاليًّا من قبل الكنائسِ، وعددُها أربعة، وهي: إنجيل متّى، ومُرقص، ولوقا، ويُوحنّا، لأنّ هذه الأناجيلَ قد لحقها كثيرٌ من التّحريفِ والمغالطاتِ. وبعضُ مؤلفيها لمْ يَرَ سيّدنا عيسى عليه السلام أصلًا، ولأنّها مناقضة بعضها البعضُ، ولأنّها لمْ تَثبُت عن سيّدنا عيسى عليه السلام بسندٍ صحيح.
- وآخرُ كتابٍ هو القرآنُ الكريم، الذي أنزلهُ الله تعالى على خاتَمِ أنبيائِه، سيّدنا مُحمد ﷺ، وهوَ أشرفُ كتابٍ أُنزِلَ على أشرفِ نبيٍّ. وهو ناسخٌ لِمَا قبلهُ مِنَ الشّرائِع، وحُكمُهُ باقٍ إلى يومِ القيامَة، لا يلحَقُهُ تَحريفٌ أو تبديلٌ. وهوَ أعظمُ آيةٍ دالّةٍ على صدقِ نُبُوّةِ رَسُولِنا الكريم ﷺ، كما أنّهُ منْ أعظمِ المُعْجزاتِ التي أيّدَهُ الله بِهَا. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[3]، وقد تكفّل تعالى بحفظه فقال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[4].

في شرح العقيدة الطّحاويّة:

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[5].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٢) سورة الصف، الآية: ٦.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

قوله: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ هي كلام الله تعالى الأزليّ القديم المنزّه عن الحروف والأصوات، وبأنّه تعالى أنزلها على بعض رسله بألفاظ حادثة، في ألواح أو على لسان ملك، وبأنّ جميع ما تضمّنته حقّ وصدق... قوله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ وكذا كتبه، ونصدّقهم كلّهم على ما جاؤوا به من ربّهم".[1]

في الأمر والنّهي

العمل بالآيات:

- اِحمد الله كثيرًا على إنزال القرآن وحفظه؛ فبحفظه بقي هذا الدّين ثابتًا، ولم يُحرَّف كما حُرِّفت الكتب الأخرى.
- اِحرص على حفظ مقاطع وسور من القرآن، وافهم معناها وردّدها في صلاتك وطبّقها في حياتك. مثال سورة البلد: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾[2].
- زُر مسلمًا نزل به البلاء، وذكّره أنّ المؤمن مبتلى، وأنّ عاقبة الابتلاء الجنّة. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾. وبشّره بأنّ الفرج لا بدّ آتٍ آتٍ آت، فإنّ مع العسر يسرًا إنّ مع العسر يسرًا.

في الأخلاق والآداب

الصّبر على أذى المشركين وتحمّل الشّدائد في سبيل نشر دين الله تعالى، فهذه سنّة عباد الله الصّالحين.

ومن المعلوم أنّ **التّعلُّق** بأسماء الله الحسنى يَعْمُرُ القُلُوبَ بالإيمان، **والتّخلُّق** بأسماء الله الحسنى يُوصِلُ العبد إلى الإحسانِ، أي إلى معالي الأمور والأخلاق الحسنة.

فإذا **تَخَلّق** الإنسان باسم مِن أسماء الله الحسنى، أوصله إلى **التّعلُّق** بهذا الاسم وبالتّالي إلى الإيمان بالله تعالى.

قال رَسولُ الله ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ- أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»[3]، أي أنّ كلّ شُعبةٍ مِن شُعَبِ الإيمان تطبّقها، سوف توصلك إلى نورٍ من أنوار **لا إِلَهَ إِلّا اللهُ**.

والأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها: إماطة الأذى عن الطّريق، الكَرَمُ، الحبُّ، الإيثار، الحياء، وحبّ الخير للغير ومساعدتهم عند الحاجة، وصلة الأرحام والرّحمة، فكلّ ذلك مِن شُعَبِ الإيمان. والحياء خُلُق جميل يبعث على ترك رذائل الأخلاق والأعمال والتّحلّي بالخصال الحميدة والوقار، لذلك ما زال الإنسان غير المسلم يُطبّقُ الأخلاق الحميدة، كالصّدق، والوفاء بالوعد، والرّحمة، وبِرّ الوالدين، إلى أن يقودَهُ ذلك إلى الإيمانِ بالله تعالى. وكلُّ الأخلاقِ، والأفعالِ الحَسَنَةِ، تُوصِلُ إلى شُعَبِ الإيمان، أيّ ستوصِلُ إلى أنوار **لا إِلَهَ إِلّا اللهُ**.

(١) ذكره الغنيميّ الميدانيّ في شرح العقيدة الطحاويّة، ج١، ص١٠٥.
(٢) سورة البلد، الآيات: ١٤-١٧.
(٣) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٣٥، كتاب: الإيمان، باب: شعب الإيمان.

• **التوجيهات:**

خذلان الأمّة وتعرّضها للخسارة والدمار واختلافها في كتابها ودينها طلبًا للرئاسة، وجريًا وراء الأهواء أو العصبيّات، ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

في السّيرة والشّمائل

اشتداد الإيذاء لرسول الله ﷺ

اشتدّت قريش في معاداتها لرسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، فلاقى رسول الله ﷺ من إيذائهم أنواعًا كثيرة. من ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: "«بَيْنَا النّبيّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الكَعْبَةِ، إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ، فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا» فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ، وَدَفَعَهُ عَنِ النّبيّ ﷺ، قَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[1]"[2]

ومنه ما روي عن عبد الله رضي الله عنه، أنّه قال: "بَيْنَا النّبيّ ﷺ سَاجِدٌ، وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ، جَاءَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ بِسَلَى جَزُورٍ، فَقَذَفَهُ عَلَى ظَهْرِ النّبيّ ﷺ، فَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ، فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ فَأَخَذَتْهُ مِنْ ظَهْرِهِ، وَدَعَتْ عَلَى مَنْ صَنَعَ"[3] ومنه ما كانوا يواجهونه به من فنون الهزء والغمز واللّمز كلّما مشى بينهم أو مرّ بهم في طرقاتهم أو نواديهم. وعن هِشَام بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: "لَمَّا نَثَرَ ذَلِكَ السَّفِيهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ التُّرَابَ، دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْتَهُ وَالتُّرَابُ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى بَنَاتِهِ، فَجَعَلَتْ تَغْسِلُ التُّرَابَ عَنْ رَأْسِهِ وَهِيَ تَبْكِي، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ، يَقُولُ لَهَا: «لَا تَبْكِي يَا بُنَيَّةُ، فَإِنَّ اللهَ مَانِعٌ أَبَاكِ»"[4].

وأمّا أصحابه رضوان الله عليهم، فقد تجرّع كلّ منهم ألوانًا من العذاب، حتّى مات منهم من مات تحت العذاب وعمي من عمي، ولم يثنهم ذلك عن دين الله شيئًا. ويطول البحث لو ذهبنا نسرد نماذج عن العذاب الذي لاقاه كلّ منهم، فعن خبّاب بن الأرتّ أنّه قال: "أَتَيْتُ النّبيّ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً، وَهُوَ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ وَقَدْ لَقِينَا مِنَ المُشْرِكِينَ شِدَّةً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تَدْعُو اللهَ، فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ، فَقَالَ: «لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الحَدِيدِ، مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ المِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، مَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ»"[5].

العبر والعظات: إنّ أوّل ما قد يخطر في بال المتأمّل، عندما يسمع القصص التي تدور حول ما لقيه النّبيّ ﷺ وأصحابه من المشركين، من صنوف الإيذاء والتّعذيب، هو أن يتساءل: فيم هذا العذاب الذي لقيه النّبيّ ﷺ وأصحابه وهم على الحقّ؟ ولماذا لم يعصمهم الله ﷻ منه، فهم جنوده وفيهم رسوله يدعون إلى دينه ويجاهدون في سبيله؟ والجواب: إنّ أوّل صفة للإنسان في الدّنيا، أنّه مكلّف بالتّعرّف إلى أسماء الله الجلاليّة والجماليّة، لتتمحّص القلوب فلا يبقى فيها إلا الله، كما أنّ العبد مطالب من قبل الله ﷻ بحمل ما فيه كلفة ومشقّة. وأمر الدّعوة إلى الإسلام والجهاد

(١) سورة غافر، الآية: ٢٨.
(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، حديث رقم: ٣٨٥٦، كتاب: مناقب الأنصار، باب: ما لقي النّبيّ ﷺ وأصحابه من المشركين بمكّة.
(٣) رواه البخاريّ في صحيحه، عن عبد الله بن مسعود، حديث رقم: ٣٨٥٤، كتاب: مناقب الأنصار، باب: ما لقي النّبيّ ﷺ وأصحابه من المشركين بمكّة.
(٤) أورده ابن قدامة في الرقّة والبكاء، عن هشام بن عروة عن أبيه، باب: ذكر طرف من أخبار نبيّنا، ج١، ص١١٣.
(٥) رواه البخاريّ في صحيحه، عن خبّاب بن الأرتّ، حديث رقم: ٣٨٥٢، كتاب: مناقب الأنصار، باب: ما لقي النّبيّ ﷺ وأصحابه من المشركين بمكّة.

لإعلاء كلمته، من أهمّ متعلّقات التّكليف. والتّكليف من أهمّ مستلزمات العبوديّة لله تعالى، إذ لا معنى للعبوديّة لله إن لم يكن ثمّة تكليف، ومن مستلزمات التّكليف تحمّل المشاقّ ومجاهدة النّفس والأهواء، وبذل المهج والمال من أجل تحقيق ذلك.

ولا ينبغي للمسلم أن يتوهّم اليأس، إذا ما عانى شيئًا من المشقّة أو المحنة. بل العكس هو الأمر المنسجم مع طبيعة هذا الدّين، فالمتأمّل يجد برهان هذا جليًّا في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ٢١٤﴾ فأولئك الذين لم يفهموا طبيعة العمل الإسلاميّ، وتوهّموا أنّ هذا الذي يرونه من الأذى والعذاب، إنّما هو عنوان ودليل على ابتعادهم عن النّصر، كان جواب هؤلاء من الله تعالى ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ أيّ أنّ على المسلمين أن يستبشروا بالنّصر كلّما رأوا أنّهم يتحمّلون مزيدًا من الضرّ والنّكبات سعيًا إلى تحقيق أمر ربّهم ﷻ. ومن كان يرى في العذاب دلائل اليأس والقنوط من النّصر، فهو متوهّم. لأنّ الحقّ هو أن تجد في العذاب والألم سيرًا في الطّريق ودنوًّا من النّصر.

وهذا المعنى نفسه هو السرّ في أنّ النّبيّ ﷺ بشّر أصحابه بأنّ الله سيفتح لهم بلاد الفرس والرّوم، ومع ذلك فلم تُفتح عليهم هذه البلاد إلا بعد وفاة النّبيّ ﷺ. فالمسألة لا ترتبط بأن تكون الفتوحات باسم رسول الله ﷺ أو تتمّ بقيادته وتحت إشرافه من أجل عظيم محبّة الله تعالى له، ولكنّ المسألة هي أن يبرهن المسلمون الذين بايعوا الله ورسوله ﷺ على صدقهم في هذه المبايعة، وأن يصدقوا فيما عاهدوا الله عليه.

في السّلوك

الإشارة: الأصل في الأرواح كلّها الاتّفاقُ والإقرار، وإنّما حصل لها الخلاف والإنكار بعد دخولها في عالم الأشباح، وهبوطها من عالم الأرواح، فبعث الله النّبيّين يُذكّرون النّاس العهدَ القديم، فمن سبقت له السّعادة حصل له الإقرار، ومَن سبق له الشّقاء حصل له الإنكار، ولذلك قال ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَد على الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[1] ثمّ بعث الله الحكماء، وهم العارفون بالله، يعالجون ما حصل للرّوح من الجهل والإنكار، فمن سبقت له العناية آمن بهم، وصدّقهم، واستسلم بكلّيته إليهم، فحصل له الوصول، وبلغ كلّ المأمول، ومن سبق له الحرمان لم يحصل له بهم إيمان، وبقي دائمًا في قلبه حيران.

في الإعجاز العلميّ

في أشراط السّاعة

(١) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١٣٨٥، كتاب: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين.

في الأدعية والأذكار

روت عائشة ﵂ أنّ رسول الله ﷺ "كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»"[1].

الآيه ٢١٥

مقدار نفقة التّطوّع ومصرفها

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ .

أسباب النزول والمناسبة

سبب نزول الآية (٢١٥): عن ابن جريج قال: "سَأَلَ الْمُؤْمِنُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيْنَ يَضَعُونَ أَمْوَالَهُمْ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[2] فَذَلِكَ النَّفَقَةُ فِي التَّطَوُّعِ، وَالزَّكَاةُ سِوَى ذَلِكَ كُلِّهِ"[3].

وقيل نزلت في عمرو بن الجموح وكان شيخًا كبيرًا وعنده مالٌ عظيمٌ، فسأل رسول الله ﷺ: ماذا ننفق من أموالنا؟ وأين نضعُها؟ فنزلت هذه الآية"[4].

المناسبة: ذكر في الآيات السّابقة أنّ حبّ الدّنيا هو سبب الشّقاق والخلاف، وأن المؤمنين بحقّ هم الذين يتحمّلون الشّدائد في أموالهم وأنفسهم ابتغاء رضوان الله، فناسب أن يذكر ما يُرغّب الإنسان في الإنفاق في سبيل الله، لأنّ الكسب والإنفاق يتطلّبان الصّبر والسّماحة، وبذل المال كبذل النّفس، وكلاهما من آيات الإيمان.

المعنى العام

يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ يسألونك يا محمّد ماذا ينفقون من أموالهم، فبيّن لهم تعالى وجوه الإنفاق ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ من أيّ خير، سواء كان ذهبًا أو فضّة أو طعامًا أو ثيابًا أو حيوانًا أو غير ذلك، فادفعوه للأهمّ فالأهمّ ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ لأنّ فيهم الصّلة والصّدقة، ﴿وَالْيَتَامَى﴾ الذين مات آباؤهم لهضم حالهم، ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ لضعفهم، ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ لغربته واحتياجه إلى ما يبلّغه وطنه، ويشمل أيضًا النّازحين من بيوتهم بسبب الحروب أو الكوارث الطبيعيّة ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ يجازيكم به الله، فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم، وهذه الآية في نفقة التّطوّع وهي غير الزّكاة، فلا نسخ في الآية.

(١) رواه مسلم في صحيحه، عن عائشة، حديث رقم: ٧٧٠، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء في صلاة اللّيل وقيامه.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٥.
(٣) ذكره الطبريّ في تفسيره، عن ابن جريج، باب: القول في تأويل قوله تعالى: يَسألونَك ماذا يُنفِقون...، ج٣، ص٦٤٢.
(٤) ذكره الواحديّ في الوجيز، عن ابن عبّاس، ج١، ص١٦٢.